شَرْحُ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ

الدرس العاشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد ...

معنا اليوم درس جديد من دروس شرح العقيدة الطحاوية؛ وهو الدرس العاشر.

وقفنا عند قول المؤلف رحمه الله: **(وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْياً، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقّاً، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ؛ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ، فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [الْمُدَّثِّرِ: ٢٦]، فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [الْمُدَّثِّرِ: ٣٢]؛ عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ)**

قوله: **(وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ)** هذه عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن، هذا القرآن الذي بين أيدينا الذي نقرأه، الذي يبدأ بالفاتحة وينتهي بسورة الناس؛ عقيدتنا فيه أنه كلام الله.

وقول المؤلف: **(وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ)**؛ هذا معطوف على ما تقدَّم؛ بأننا نقول في القرآن؛ مُعتقدين بتوفيق الله: إن القرآن كلام الله؛ أي: هذا مُعتقدُنا، هذا الذي نَدينُ الله به، نَعْتَقِدُه ونُقِرُّ به ونقوله؛ إنّ القرآن هذا الكتاب المُنَزَّل على محمد ﷺ؛ هو كلام الله؛ تَكَلَّم به سُبحانه وتعالى.

قوله: (مِنْهُ بَدَا) قولًا له، (مِنْهُ بَدَا)؛ أي: ظَهَرَ منه، قولًا له؛ قاله وأنزله سبحانه وتعالى على نبيه، فالله سبحانه وتعالى قاله- تَكَلَّمَ به-، وسَمِعَهُ منه جبريل، وسَمِعَهُ نبيّنا محمد ﷺ من جبريل، وبَلَّغَهُ لأمته، وها هم يتناقلونه؛ جمعاً عن جَمعٍ إلى زمننا هذا.

فمنه بدا؛ أي: إنه تَكَلَّمَ به وقاله وأنزله سبحانه وتعالى، كما قال الله تبارك وتعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة:٦]؛ فهو كلام الله تَكَلَّمَ به.

وقال تبارك وتعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة:٧٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهو كلام الله (مِنْهُ بَدَا) كلامًا له، وأنزله على نبيّه ﷺ {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمر:١]، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ} [النحل:١٠٢]؛ فابتدأ من الله تبارك وتعالى؛ تَكَلَّمَ به.

قوله: **(بِلَا كَيْفِيَّةٍ)** أي: إن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كَيْفِيَّةٍ نَعْلَمُها؛ هذا المعنى المقصود هنا، كما قال الإمام مالك رحمه الله في الاستواء: (الاستواء مَعْلوم، والكَيْفُ مَجْهول، والسُؤال عنه بدعة).

فنقول: كيفية الكلام مجهولة بالنسبة لنا لا نعلمُها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يُخْبرنا بذلك، هذه أمور غيبية، نحن نؤمن بما أخبرنا الله تبارك وتعالى به منها، وما جاء في الكتاب آمنا به، وما جاء في السنة آمنا به، وما سَكَتَ الله سبحانه وتعالى عنه؛ نسكت نحن عنه.

قوله: **(قَوْلًا)** أي: منه بدا قولًا بلا كَيْفِيَّة نعلمها- هذا المقصود-، أي: بدا من الله قولًا له قالَه، تَكَلَّمَ به، وسمعه منه جبريل وسمعه الرسول ﷺ من جبريل.
وقوله: (قَوْلًا) أَكَّدَ فيه أنه كلام الله تبارك وتعالى؛ حتى لا تَتَوَهَّم أن مَقْصودَهُ من ذلك: أنّ منه بدا خلقاً، لا؛ بل منه بَدَا قَوْلاً.

قوله: **(وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا)؛** فهو مُنْزَل على النبي ﷺ، {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء:١٩٣- ١٩٥]؛ إذن هو مُنْزَلٌ من عند الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ وَحْياً من الله تبارك وتعالى؛ كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام:١٩].

قوله: **(وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا)** المؤمنون هم الذين آمنوا بما جاء به محمد ﷺ، فصدَّقوا الرسول ﷺ، (وَصَدَّقَهُ) أي: صَدَّقَ المؤمنون الرسول ﷺ، (على ذلك حقًّا) فصدَّقَ المؤمنون ما جاء به النبي ﷺ من كلام الله تبارك وتعالى، (حَقًّا) والحَقُّ ثابت ضِدّ الباطل، فصدقوه بأن هذا الكلام هو كلام الله، وأنَّه أتى به من عند الله تبارك وتعالى، وأنّ الله أوحى به إليه، وأنَّ هذا حقٌّ ثابتٌ لا شك فيه.

قوله: **(وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)** يعني: أيقَنَ المؤمنون الذين صدَّقوا به، **(أنّه)** أي: هذا القرآن كلام الله على الحقيقة لا المجاز.

المُعَطِّلة بأنواعهم يقولون هو كلام الله؛ يقول لك: أنت تقول: هو كلام الله، ونحن نقول: هو كلام الله؛ إذن لا يوجد فَرْق؛ لكن ماذا يَعْنون بكلام الله؟
يقول الجهميَّة والمُعْتزلة: هو كلام الله ولكنه مَخْلوق، وإضافته إليه إضافة تشريف؛ كإضافة الناقة، وإضافة البيت؛ فهو من إضافة مَخْلوق إلى خالقه- هذا كلامهم-؛ فليس هو كلام الله حقيقة، ليس هو كلام الله الذي هو صفته تبارك وتعالى، يقولون: لا؛ ليس هو كذلك، يقولون: الله لا يتكلم؛ فلا يُثْبِتون صفة الكلام لله تبارك وتعالى.

والذين خالفوا في هذه المسألة- وهي مسألة القرآن وأنه كلام الله- وهم المُعَطِلة أهل البدع الذين قالوا: القرآن مَخْلوق؛ المسألة عندهم مَبْنية على صفة الكلام أساساً، فمن نفى صفة الكلام؛ يُشْكِلُ عليه أمر القرآن؛ فكيف يَنْفي صفة الكلام، ثم يقول القرآن كلام الله؟! لا يستقيم، فعنده الله لا يَتَكَلَّم؛ فكيف يكون القرآن كلام الله؟!! فلذلك قالوا: القرآن مَخْلوق وليس كلام الله.

وقالوا: الله لا يَتَكَلَّم؛ فنفوا عنه صفة الكلام؛ هذا أصل ضلالهم.

وقد تقدم الكلام في صفة الكلام في مبحث الصفات وإثباتها لله سبحانه وتعالى؛ وأنّ إثباتها يَلْزَم منه التشبيه عند أهل البدع؛ ولذلك يَنْفونها عن الله سبحانه وتعالى.

إذن المُعَطِّلة يقولون: هو كلام الله لكن لا حقيقة، ليس كما قال المؤلف: (وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ)؛ فالمؤلف هنا ينفي عقيدة أهل البدع من المُعَطِّلة الذين يقولون إن الكلام كلام الله ولكنه ليس على الحقيقة؛ بل على المَجاز، وإضافته إلى الله إضافة تشريف من إضافة المَخلوق إلى الخالِق؛ هذا قولُهُم؛ هذا قول الجَهمية والمُعْتزلة.

أما الأشاعرة؛ فهم كعادتهم مُضْطَرِبون مُتَخَبِطون، يأتون بعقائِد مُلَفَّقة تَأخُذُ من هنا وهناك؛ لذلك تَحْذَر من تَخَبُطاتِهِم وأقوالهم التي يُحاولون الجَمْعَ فيها بين عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة المُعَطِّلة من الجَهْمِية والمُعْتَزِلة، فإنهم حين يُصْدَمون ويُواجَهون بأدلة الشرع من الكتاب والسنة وما كان يَقوله السلف الصالح رضي الله عنهم؛ يُحاولون أن يُلَفِقوا أقوالًا ما أنزل الله بها من سلطان؛ فيجمعون بين قَول المُعَطِلة وقَول أهل السنة من هنا وهناك- ولا يَجْتَمِعان طبعاً-؛ لذلك أتَوا بما أَضْحَكَ عليهم العُقَلاء؛ كمسألة الرؤية التي ستأتي إن شاء الله، ومسألة كَسْب الأشعري، وغيرها من العقائد التي اضطرب فيها الأشاعرة اضطراباً شديداً.

فالجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَة يقولون القرآن كلام الله لكنه مَخْلوق.
والأشاعرة مُؤدّى كلامهم ونهايته أنّه مَخْلوق أيضاً، وليس كلام الله سبحانه وتعالى، فهؤلاء الأشاعرة يُثبتون الكلام لله؛ يقولون: الله سبحانه وتعالى له كلام؛ لكنّ كلامه عندهم نفسي.
ما معنى الكلام النفسي؟
يعني: أنّها معانٍ أو معنىً واحد قديم قائمٌ به سبحانه وتعالى لازمٌ لذاته، معانٍ قائمة بالنفس، هذا معنى كلام نفسي؛ معانٍ في النفس لا يتكلّم بها بحرف وصوت؛ هي معانٍ موجودة في النفس أو معنىً واحد قديم قائم في الله سبحانه وتعالى في نفسه، وإذا أراد أن يُظْهر هذا المعنى خَلَقَ خَلْقًا عَبَّر به عما يُريد؛ لذلك يقولون: القرآن عبارة عن كلام الله؛ فهو في الحقيقة مَخْلوق عندهم، بَعْضُهُم يُصَرّح بهذا، وبَعْضُهُم لا يُصَرّح.

إذن في النهاية عندهم جميعاً: أنّ القرآن الذي بين أيدينا هذا مَخْلوق، وأنّه كلام الله مَجازا لا حقيقةً؛ هذا مُؤدى القول عند الأشاعرة وغيرهم.

وأما أهل السنة والجماعة؛ فيُخالفونهم في هذا، ويقولون بأنّ الله سبحانه وتعالى تَكَلّمَ بهذا القرآن كلاماً حقيقيًّا بحرف وصوت، وسَمِعَهُ منه جبريل.

فالقول بأن القرآن مَخْلوق قول مُبْتَدَع، وقد كَفَّرَ السلف من يقول القرآن مَخْلوق في نصوص كثيرة جاءت عنهم؛ ذكرها الخَلّال في "السنة"، وعبدالله بن الإمام أحمد في "السنة"، وذكرها الآجُري في "الشريعة"، واللالكائي في "اعتقاد أهل السنة والجماعة"؛ وغيرهم أيضًا، وقد نقلوا الاتفاق على هذا؛ أنّ من قال: القرآن مَخْلوق؛ فهو كافر.

وبسبب هذه المسألة حَصَلَت مِحْنَةُ العُلَماء، في زمن الخليفة المأمون العباسي، لمّا صار له وزير من المُعْتَزِلة وهو ابن أبي دُؤاد؛ تَبَنّى هذه العقيدة- أنّ القرآن مَخْلوق-، وتَبَناها معه المأمون؛ فامْتَحَنَ العُلَماء عليها، وقَتَلَ من قال القرآن كلام الله غير مَخلوق وأبى أن يقول: القرآن مَخْلوق؛ فقَتَلَ من قَتَلَ منهم وعَذّبَ من عَذّب، ونَجّى الله سبحانه وتعالى مَن شاء مِن فِتْنَتِه.

فالقرآن كلام الله تعالى حقيقة ليس بمَخلوق كما يَقوله أهل البدع من أهل الكلام؛ المُعَطِّلة والمُتَكَلِّمون أهل الكلام الذين يتكلمون في دين الله بالرأي، بالعقول؛ العقلانيون، الجَهْمِيَّة؛ كلّها أسماء لمن قدّمَ العقل على النَّقْل، ومن نفى شيئاً من صفات الله سبحانه وتعالى الثابتة في الكتاب والسنة.

قوله: **(فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ؛ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [الْمُدَّثِّرِ: ٢٦])**

(فَمَنْ سَمِعَهُ) ضمير عائد إلى القرآن، **(فزعم)** أن القرآن كلام البَشَر، تَكَلَّمَ به محمد ﷺ؛ **(فقد كفر)**؛ هو كافر مُكَذِّب للرسول ﷺ، وقد وَرَدَ أنّ الوليد بن المُغيرة سمع القرآن، فأراد الكُفّار منه أن يقول فيه قولاً فقال: (إنْ هذا إلا قول البشر)؛ فأنزل الله فيه الآيات التي في سورة المدثر: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا* وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ١١-٢٩]؛ هكذا توعده الله سبحانه وتعالى على قوله: (إن هذا إلا قول البشر).

(عَلِمنا بذلك أنّه قَولُ خالِق البشر، ولا يُشْبه قَوْل البشر)

وذم الله سبحانه وتعالى هذا الذي قال: (إنْ هذا إلا قول البشر)، وتَوَعَّده الله سبحانه وتعالى؛ إذن فليس هو بقول البشر؛ بل هو قول خالق البشر تبارك وتعالى.

قال: **(وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ البشر)** لا يُشبه قول البشر لا في فصاحته، ولا في معناه، ولا في عدله، ولا في صِدْقِه في أخباره؛ لا يُشبه قول البشر، مع أنّه نَزَل باللغة العربية، وهو كلام بحرف وصوت.

هذا ما أردنا أن نذكره في هذه الفِقْرة.

ثم قال المؤلف -رحمه الله-: **(وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ؛ فقد كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا؛ اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكفار انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالبَشَرِ)**

(من وَصَفَ الله بمعنى من معاني البشر)؛ يعني من شبَّه الله سبحانه وتعالى بخلقه؛ فقد كفر؛ لأنّه مُكَذِّب بقول الله تبارك وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١]؛ فالله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

قال أحد أئمة السلف؛ وهو نُعَيم بن حَمّاد: (من شَبّهَ الله بخلقه كَفَر) لاحظ هناَ من شبه الله بخلقه كما فعل المُشَبِهة؛ كَفَر، (ومن جَحَدَ ما وَصَفَ الله به نفسه كفر)؛ كما فعلت المعطلة، قال: (وليس فيما وصَف الله به نَفْسَه ولا رسوله تَشبيه)؛ أي: أنت عندما تثبت لله ما أثبت لنفسه من أسماء وصفات؛ لا تكون قد شبَّهْتَ الله بخلقه، وليس في هذا تشبيه، وقد تَقَدّم معنا معنى التشبيه عند السلف ومتى يكون المُشَبِّه مُشَبِّهاً.

قال: **(فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ)** من أبْصَرَ هذا، من تأمل فيه وأبصَرَه ببصيرته؛ اعتبر؛ فهناك فَرْقٌ واضح بين صفات الخالق وصفات المَخْلوق، وإن اشتركت في الاسم وأصل المعنى؛ لكنها تختلف في الحقيقة وتختلف في الواقع والخارج؛ فلا تشابه بين كلام الله وكلام البَشَر، وكذلك في بقية الصفات؛ فَفَرْق بين صفات الله وصفات المَخْلوق، ومن لم يُفَرِّق بينهما؛ فقد كَفَر .

(وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكفار انزجر) انزجر عن مثل قول الوليد بن المُغيرة، وعن مثل قول من كَذّبَ بما جاء في الكتاب والسنة من إثبات ما أثبت الله لنفسه.

(وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر) أنّ الله سبحانه وتعالى بصفاته ليس كالبشر، لا في صفة الكلام ولا السَمْع ولا البَصَر، ولا غير ذلك من الصفات؛ فليس كمثله شيء تبارك وتعالى. والله أعلم.

والحمد لله. ونكتفي بهذا القدر.